مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٨) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (8) 2021

من الأخلاق إلى النزعة الإنسانية عند علي شريعتي

د. برهان مهلوبي*
د. منـذر شبـاني**
رؤى محمود***

(تاريخ الإيداع ٢٥ /١٠ /٢٠٢١. قُبِل للنشر في ١٢/٧ /٢٠٢١)

□ **ملخّص** □

تناول هذا البحث مفهومين أساسيين هما: الأخلاق والنزعة الإنسانية عند شريعتي، فوجدنا أن شريعتي قد ربط بين الأخلاق والإنسانية، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان إنساناً إلا إذا امتلك الوعي بضرورة أن يكون كائناً أخلاقياً؛ مؤكداً بذلك على ضرورة أن يحقق الإنسان سعادته الأخلاقية، لأنه يتبع الواجب الأخلاقي، أي أن الإنسان عليه أن يقوم بالفعل الأخلاقي من أجل الأخلاق فقط، وليس من أجل تحقيق مكاسب مادية، وهذا بدوره أدى عند شريعتي إلى البحث في النزعة الإنسانية التي لابد أن تكون تأسيساً لجعل الوجود الإنساني هدفاً وغاية في الآن نفسه.

الكلمات المفتاحية: الأخلاق، الواجب، الإنسان، الأنسنة .

* أستاذ، قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا.
** أستاذ ـ قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا.
*** طالبة دكتوراه ـ قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سوريا

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٨) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (8) 2021

From Ethics to Humanism According to Ali Shariatei

Burhan Almhlobi [*]
MonzerShbani [**]
Roua Mahmoud [***]

(Received 25/10 /2021. Accepted 7/12/2021)

□ ABSTRACT □

This research dealt with two basic concepts which are ethics and humanism according to Shriqi . We found that Shriqi linked ethics and humanity , as a man cannot be human unless he possesses awareness of the necessity of being a moral being . Thus, asserting the need for a man to achieve his moral happiness , because he follows the moral duty , for the sake of morals only and not for material gains . This , in turn , led Shriqi to research the humanism , which must be a foundation for making human existence a goal and an end at the same time .

Keywords: Ethics, duty, human, Humanization.

[*] -Postgraduate Student, Department of philosophy in the Faculty of Arts and Humane Science Tishreen University, Lattakia, Syria.

- [**] professor, Department of philosophy in the Faculty of Arts and Humane Science – Tishreen University, Lattakia, Syria.

- [***]Postgraduate Student, Department of philosophy in the Faculty of Arts and Humane Science Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدمة:

لا يمكن البحث في إنسانية الإنسان والغوص في أعماق هذه الفكرة إلا إذا انطلق البحث من الوازع الأخلاقي، فالإنسان هو كائن أخلاقي، وطالما أنه كذلك فإننا نكون قد وقفنا على الخاصية الأساسية في إنسانية الإنسان، إذ من خلال الأخلاق يبدأ الإنسان بتحقيق السعادة واللذة المرتبطة بالفعل الأخلاقي، هذه السعادة وهذه اللذة التي لا يطلب من ورائها الإنسان مقابلاً مادياً، بل إن كل ما يطلبه الإنسان هو أن يسلك أخلاقياً وإنسانياً وفقاً لما يطلبه الضمير الأخلاقي والواجب الأخلاقي، على هذا النحو يناقش شريعتي الأخلاق، ويبحث في السبل التي يجب على الفرد اتباعها من أجل أن يكون سلوكه سلوكاً أخلاقياً. وأما عن علم الأخلاق فإن شريعتي يرى أن علم الأخلاق هو العلم الذي يجب أن يوضح للإنسان ما هو السيئ وما هو الجيد، أي كيف يميز الإنسان بين الأفعال السيئة والأفعال الجيدة ويركز في هذا الشأن على النوايا الأخلاقية، حيث إن النوايا الأخلاقية هي الرغبة بالقيام بالأعمال الأخلاقية الجيدة، فالفعل الأخلاقي لا يكون كذلك إلا إذا كان مرتبطاً بالنية الخالصة من أجل الفعل الأخلاقي.

لقد ارتبط الفعل الأخلاقي إذاً والقيام بالأعمال الأخلاقية الجيدة بالواجب، ولأن الأمر كذلك فإن هذا الواجب هو الذي يحقق إنسانية الإنسان، وطالما أن البحث الذي بين أيدينا يربط بين الأخلاق وإنسانية الإنسان عند شريعتي، فإننا في هذا البحث قد ناقشنا كيف يربط شريعتي بين الأخلاق والإنسانية؛ خصوصاً وأن شريعتي يطرح هذه الفكرة في مناخ إسلامي، مما اقتضى أن يقوم شريعتي بمناقشة مفهوم الأنسنة كما طرحه الاتجاه الإنسانوني في عصر النهضة الأوروبية، حيث أصبح الإنسان محور الوجود، فكل شيء يجب أن يخضع لتحقيق إنسانية الإنسان، ولكن لا يكتفي شريعتي بهذه الفكرة، إنه أيضاً يوجه سهام النقد إلى المدارس الفلسفية والاجتماعية والإنسانية التي حاولت أن تفسر موقع الإنسان في هذا العالم، وهو أي شريعتي لم يرفض هذه المدارس، بل استند إليها ولكنه أضاف إليها عاملاً آخر؛ فهو عندما ناقش الفلسفة الوجودية والفلسفة التاريخية والفلسفة الاجتماعية، وجد أن هذه الفلسفات تتخذ مواقف متصلبة حيال مفهوم الإنسان، فمنها من يرى أن الإنسان هو صناعة التاريخ أو صناعة الطبيعة أو صناعة المجتمع، ولكن شريعتي ينطلق من نظرية مفادها أن الله هو أساس الوجود العام وأساس وجود الإنسان على المستوى الخاص، وخرج شريعتي برؤية تقول إن الإنسان يتشارك مع الله في الوجود، ولأن الأمر كذلك فإن الإنسان هو فاعل يؤسس لوجوده ضمن علاقة التشاركية مع الله.

-الدراسات السابقة:

دراسة(شبابحة، سهيلة٢٠١٧) بعنوان: الإنسان والحضارة في فلسفة علي شريعتي: تناولت هذه الدراسة البحث في الإرث الذي خلفه الغرب في عالمنا العربي الإسلامي، والكبوة التي ألقت بالإنسان وجعلته مسلوب الإرادة، هذه النظرة التشاؤمية في مستقبل الإنسان تجذرت في فكر جل مفكري العالم الإسلامي، وكان منهم المفكر الإيراني علي شريعتي الذي انطلق من الإنسان باعتباره محور الحضارة والنهضة معاً. وقد أكدت هذه الدراسة أن الإنسان عند شريعتي له دور فاعل ونشيط وفعال.

دراسة(المحاسنة، خالد فوزي يعقوب ٢٠١٣) بعنوان: النهضة في فكر مالك بن نبي وعلي شريعتي: هدفت هذه الدراسة إلى محاولة معرفة دلالات مفهوم النهضة لتحديد إشكالية المفهوم على المستوى الدلالي، وعلى المستوى المعرفي، كما سعت إلى معرفة البيئة الفكرية التي نشأ فيها كلا المفكرين بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، كما سعت إلى محاولة معرفة أصول النهضة من المنظورين الإسلامي والغربي في تصور وإدراك كلا

المفكرين. وبعد اطلاعنا على هاتين الدراستين تبين أن البحث الحالي يتفق مع الدراستين السابقتين في التأكيد على دور الإنسان الفاعل في فكر علي شريعتي، ويختلف البحث عنهما في أنه تناول مفهوم الأخلاق الفلسفية، وكيف أسس شريعتي لمفهوم التشاركية بين الله والإنسان من أجل الكشف عن أصالة الوجود الإنساني.

-أهمية البحث:

يمتاز هذا البحث بأهمية خاصة كونه يتناول مفكراً إشكالياً هو علي شريعتي، خصوصاً وأن الدراسات العربية حول شريعتي قليلة نسبياً، ويضاف إلى ذلك أن شريعتي قد قدم فكراً نقدياً للفلسفة الأوروبية عموماً، وكيف يمكن الاستفادة من الطروحات الفلسفية الغربية من أجل مناقشة القضايا المتعلقة بالمجتمع الإسلامي.

-أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن موقف شريعتي من الأخلاق الفلسفية قبل الأخلاق الدينية، إذ بالفعل يميز شريعتي بين رؤيتين للأخلاق هما: الرؤية الدينية والرؤية الفلسفية الكونية، ثم كيف استطاع شريعتي أن ينتقل من التأسيس الأخلاقي للوجود الإنساني ليصل إلى التأسيس الإنساني لإنسانية الإنسان، وقد نجح شريعتي في ذلك عندما طرح مفهوم التشاركية بين الإنسان والله من أجل الكشف عن أصالة الوجود الإنساني.

- منهجية البحث:

لقد استعنا في هذا البحث بالمنهج النقدي التاريخي، محاولين الكشف عن تأثر شريعتي بالفلسفات الغربية وموقفها من الإنسان والأخلاق، ثم كيف عالج شريعتي الطروحات الفلسفية في سياق فكره المرتبط أشد الارتباط بوعيه التاريخي ضمن مناخ إسلامي.

ـ النتائج والمناقشة:

أولاً: معنى الأخلاق:

هناك أفعال يقوم بها الإنسان من أجل أن يحقق السعادة مثل كيفية الحصول على المكاسب المادية كالمال والملكية، أي ملكية الأشياء وكذلك مثل سعي الإنسان للحصول على السلطة أو الوجهات الاجتماعية وغير ذلك من الأشياء التي يشعر الفرد، أنه يحقق من خلالها سعادته الخاصة، وهي هنا سعادة مأجورة، أي يحققها الفرد لقاء أشياء معينة، أما السعادة التي يجب على الفرد أن يبحث عنها، فهي تلك السعادة التي لا يطلب من ورائها الفرد أي لقاء مادي، وإنما فقط أن يشعر الفرد من خلالها بالسعادة المعنوية الداخلية، وهذه السعادة لا يمكن تحقيقها، إذا كان الفرد يريد مقابلاً مادياً أو مالياً، ومثل هذه السعادة التي هي شعور داخلي بالرضا عن النفس، والرضا عن الأفعال الخارجية للإنسان، هذه السعادة هي السعادة التي تقوم على الأخلاق والوجدان الأخلاقي، وبالنسبة إلى المفكر الحداثوي الإيراني علي شريعتي، فإن الأخلاق هي:" قوة أو ملكة تدفعك للقيام بالأعمال الحسنة، وتنهاك عن فعل الأعمال السيئة"[١].

[١] - شريعتي، علي. الأخلاق للشباب والطلاب والناشئة"، ت: موسى قصير، دار الأمير، بيروت، ص١٢.

فعلم الأخلاق إذاً كما يراه شريعتي هو الذي يساعدنا على التمييز بين الأفعال الجيدة والأفعال السيئة، ويحتاج مثل هذا التمييز إلى الوجدان الأخلاقي والإرادة الأخلاقية، كما يركز شريعتي على ما يسميه النوايا الأخلاقية، فكل فعل أخلاقي يجب أن تدفعه النوايا الأخلاقية، أي أن يكون لدينا رغبة بفعل الأعمال الأخلاقية الجيدة، ويعبر شريعتي عن ذلك بالقول:" عندما يقول أحد ما أني احب فعل الأعمال الحسنة، ولا أريد فعل السيئات، لكني لا أدري ما هي الأعمال الحسنة وما ينبغي فعله، ولا ما هي الأعمال السيئة وما لا ينبغي فعله، فمعنى ذلك ان هذا الشخص يمتلك قوة أخلاقية أو وجداناً"[١].

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا كيف يمكن أن نعرف وأن نميز بين الأفعال الحسنة والأفعال السيئة، خصوصاً وأن هذا التمييز بين كل منهما هو تمييز معياري، فليس هناك من شيء جيد يبقى جيداً وليس هناك من شيء سيئ يبقى سيئاً بشكل دائم، أي أن الأفعال الأخلاقية أفعال معيارية. ليس هناك من قوانين ثابتة وناظمة لها، ولكن علم الأخلاق هو الذي يساعدنا على تحديد الأشياء السيئة والأشياء الجيدة، إذ تلعب الميول والرغبات هنا دوراً حاسماً في جعل الأشياء جيدة أو سيئة، وعلم الأخلاق هو الذي حسب شريعتي" يبين لك ما هي الأعمال الحسنة التي ينبغي القيام بها، وما هي الأعمال السيئة التي ينبغي تجنبها، إذاً يمكن القول إن علم الأخلاق هو العلم الذي يعرفنا ما هي الأمور الحسنة وما هي الأمور السيئة"[٢]. وطالما أن شريعتي ينظر إلى علم الأخلاق بهذه الطريقة، فإننا يجب أن نبحث في أهم عنصر من عناصر الأخلاق، وهو الواجب الأخلاقي وكيف نظر إليه شريعتي في ضوء دراسته للأخلاق في المجتمع بكل تفاصيله ومؤسساته، إذ نجد أن الواجب الأخلاقي مرتبط بأشكال السلوك التي يؤديها الإنسان في حياته بشكل عام، وأول ما يشترط شريعتي على الفرد معرفته، هو أن يعرف ما هي الأخلاق وكيف تكون طبيعة السلوك الأخلاقي، وعلى الفرد أن يميز من خلال الإدراك بين ما هو سيئ وما هو جيد، ومن أجل تحقيق هذه المعرفة التي تبدو بمثابتها شرطاً أخلاقياً فإنه ينبغي على الإنسان أو الفرد أن يخضع لأوامر الواجب الأخلاقي، هذه الأوامر الملزمة أخلاقياً، إذ يرى شريعتي أن الواجب الأخلاقي هو" أن تفعل كل ما يأمرك بفعله علم الأخلاق، لكن من الذي يجبرك على فعل ذلك؟ لو أن رجلاً قوياً أجبرك من خلال الجلد والضرب على أداء فعل حسن، لقمت به مع الإحساس بالعذاب والغضب، أما الأخلاق فإن وجدانك وضميرك يجبرك على فعل الخير حتى لو كان في أدائه ضرر ذلك، لكنك رغم هذا الإجبار وتحمل الضرر تبقى مسروراً وتشعر باللذة جراء القيام به"[٣].

إذاً الواجب الأخلاقي صحيح أنه يحتمل صيغة الإلزام والأمر بالنسبة إلى الفاعل الأخلاقي، ولكن نلاحظ هنا أن الأمر والإلزام ليسا من الخارج، أي ليس هناك من شخص أو قوة خارجية تجبر الإنسان على الفعل الأخلاقي، بل نجد أن هذا الأمر موجود داخل الفرد الأخلاقي، إنه يطلب إلى الفرد أن يقوم بالأفعال الأخلاقية منصاعاً لأوامر هذا الواجب دون أن نشعر بالذل أو الإهانة، بل على العكس إننا عندما ننصاع لأوامر الواجب الأخلاقي، أي أوامر الضمير الأخلاقي، فإننا نشعر بالسعادة واللذة، وبمعنى ما فإن الآمر الأخلاقي الداخلي وهو الضمير يجعلنا نلبي هذه الأوامر ونحن مرتاحين لها لأنها تحقق لنا سعادة داخلية، وفي هذا الشأن يقول شريعتي:" فعندما ترى مريضاً فقيراً فإن وجدانك يجبرك على فعل الخير. وعلم الأخلاق يقول لك: أخذه إلى الطبيب وشراء الدواء له عمل حسن. والواجب الأخلاقي يدفعك لأخذه والصرف عليه من مالك الخاص دون أن تتوقع من أحد أجوراً على ذلك أو تعويضاً"[٤].

[١] - المصدر نفسه، ص١٣.
[٢] - المصدر نفسه، ص١٣.
[٣] - المصدر نفسه، ص١٤.
[٤] - المصدر نفسه، ص١٥.

هكذا إذاً نجد أن الواجب الأخلاقي يدفع الإنسان إلى القيام بالفعل الأخلاقي من دون انتظار مقابل له، أي أنه هنا يسلك منقاداً بالواجب الأخلاقي لمجرد الواجب بذاته، وعندما يتحدث شريعتي عن الواجب فإنه هنا لا يتحدث عن واجب خاص، بل إنه يرى في الواجب حالة عامة، أي حالة إنسانية وعلى كل الأفراد أن ينصاعوا للواجب الأخلاقي، فهذا الواجب الأخلاقي الذي هو الضمير، هو ضمير جمعي وليس ضميراً فردياً، وبالنسبة إلى شريعتي فإن الإنسان هو كائن أخلاقي يسلك بمقتضى الضمير الأخلاقي والوجدان الأخلاقي، وما يحصده الإنسان في الفعل الأخلاقي ليس القيمة المادية بل إنما يحصده الإنسان هو القيمة المعنوية التي تجعل الإنسان يشعر بالسعادة. ولكن هذا الواجب هو الذي يتخذ عند شريعتي أشكالاً متعددة، فهناك أشكال أساسية عند شريعتي، وهي أشكال تتكامل وتتضافر مع بعضها البعض من أجل أن يتكون الفرد تكويناً أخلاقياً، ويلفت الانتباه هنا أن شريعتي يهتم بالواجب الديني، إذ إن الواجب الأول عند شريعتي هو الواجب تجاه الله، وهذا الواجب ينقسم إلى قسمين: القسم الأول هو الذي يركز على مسألة الاتقاد بأن الله هو الخالق وبدونه لا وجود لأي موجود، ويذكر ذلك شريعتي صراحة بالقول:" وأول واجب علينا هو أن نعتقد بأن الله هو خالق كل ما هو موجود، وأن ليست هناك قوة أخرى تحكم هذا العالم سواه، وأنه ليس له شريك ومعين"[١].

ويمكن أن نلاحظ هنا أن شريعتي يفهم الله والعلاقة مع الله، أي علاقة المؤمن بالله فهماً أخلاقياً، أي أن الاعتقاد بواحدية الله ووجوده هو جزء من الأخلاق التي يدعو إليها شريعتي، إذ إن واجب الاعتقاد هذا يمنح الفرد الهدوء والسلام الداخليين. أما القسم الثاني من الواجب تجاه الله فهو ذلك الذي يتعلق بالأوامر الأخلاقية وكذلك النواهي التي فرضها الله على عباده، إذ إن المرشد والمعين الأخلاقي الأول للإنسان هو الله، ويركز شريعتي على ذلك فيقول:" والواجب الثاني أن لا نعبد أي أحد وأي شيء سوى الله، وأن نستمد العون في كل الأمور منه وحده، وأن نعمل بأوامره التي أبلغنا إياها عبر النبي المرسل منه، وأن لا نتوانى عن خدمة الناس كسباً لرضاه"[٢].

هكذا نجد أن الواجب تجاه الله هو واجب أخلاقي، ولم يقل شريعتي بأن هذا الواجب هو واجب ديني فقط، إلا إذا اعتبرنا أن الدين والعبادة من وجهة نظر شريعتي هما في جوهرهما أخلاق إنسانية، وهذه فكرة مهمة عند شريعتي الذي يوحد بين الدين والأخلاق وكأنه لا يمكن الحديث عن الدين بمعزل عن الحديث عن الأخلاق، وسوف نجد أن شريعتي عندما يفرغ وينتهي من الحديث عن الواجب تجاه الله فإنه سيبدأ بالحديث عن واجب الإنسان تجاه نفسه، فالفكرة الأخلاقية هنا تقوم على ضرورة اهتمام الإنسان بواجباته تجاه نفسه، لأن الإنسان مكون أو مركب من قسمين البدن والروح، حيث البدن هو أعضاء الجسد، أما الروح فهي تلك المتعلقة بالقوى الفكرية والتي أيضاً يمكن من خلالها الوصول إلى اللذة والسعادة الفكرية تماماً كما يصل الإنسان من خلال جسده إلى لذة جسدية، ولهذا نجد أن الإنسان عليه القيام بواجباته الأخلاقية تجاه جسده، وبالنسبة إلى شريعتي فإن الواجب تجاه الله يقتضي على الإنسان أن يكون نظيفاً جسدياً، وهنا يربط شريعتي بين الواجب الديني والواجب الدنيوي، فالنظافة من أهم التعاليم الإسلامية، ويؤكد شريعتي على ذلك فيقول: "النظافة والطهارة وهما أكبر واجبين تجاه البدن، وعلى كل إنسان أن يؤديهما بدقة، إلى حد أن نبي الإسلام (ص) اعتبر أن

[١] - المصدر نفسه، ص١٦.
[٢] - المصدر نفسه، ص١٦.

النظافة من الدين فقال: النظافة من الإيمان وضمت التعاليم الإسلامية الكثير من التوصيات بالنظافة والصحة"[١].

ويبين شريعتي أن النظافة الفردية هي أساس النظافة الجماعية والاجتماعية، فإذا لم يكن الفرد نظيفاً على المستوى الشخصي فإنه سيؤدي إلى ضرر كبير على مستوى المجتمع والجماعات الاجتماعية، وهنا أي في غياب النظافة الفردية يصاب البدن بالمرض، وهذا المرض ينتقل إلى جسم المجتمع، فيمرض المجتمع بمرض الفرد، وقد أشار شريعتي إلى الأحاديث الشريفة عن الرسول(ص) إذ يقول:" وقد جاء في الحديث العقل السليم في الجسم السليم ومن كان مريضاً دوماً لا يمكنه أن يخدم أسرته ودينه ووطنه، وليس له قيمة في مجتمعه"[٢].

وإذا كان هناك واجبات تجاه الجسد فإن على الإنسان أن يقوم بواجباته تجاه الروح والواجب الأكبر، تجاه الروح هو تحصيل المعرفة والأدب، وبهذا الشأن أيضاً يكتب شريعتي" من أجل أن تتطور أخلاقنا وأفكارنا علينا أن نغذي أرواحنا تماماً كما نغذي أبداننا، وغذاء الروح هو أدب المعرفة والتضحية وعبادة الله وسائر التعاليم الأخلاقية"[٣]. ويختم شريعتي واجباته الأخلاقية بالحديث عن واجب الفرد تجاه الوالدين فيقول:" احترام الأب والأم إحدى الواجبات الأخلاقية الكبرى لكل إنسان، لأن لهما حتى على كل منا أكثر من غيرهما"[٤].

وبهذه الصورة تكتمل فكرة الواجب الأخلاقي عند شريعتي، هذا الواجب الذي يمكن الفرد من العيش في حياة سليمة تساعده على تحقيق حياة أخلاقية متوازنة.

ثانياً: الفرق بين الأنسنة والإنسان:

يتعلق مفهوم الأنسنة بالمحاولة التي أوجدها الإنسان من أجل أن يسقط الصفات الإنسانية على الصفات الطبيعية، أي أن الإنسان بدأ التفكير في الوجود والطبيعة وفق ما يتناسب مع حالته الإنسانية، إذ إن الإنسان قد فكر بالظواهر الطبيعية على أنها ظواهر لها تفكيرها وعواطفها وقدراتها وكأنها كائنات عاقلة تسلك وتتصرف كما يسلك الإنسان ويتصرف، وقد عرفت هذه الظاهرة بإنها ظاهرة أنسنة الطبيعة وإضفاء صفات إنسانية على الظواهر الطبيعية، وقد أطلق على هذه الظاهرة اسم انثروبوموزنيزم Anthropomorphisme"[٥].

وهذا التفكير الإنساني بظروف الظواهر الطبيعية يعود إلى الطريقة التي تناول فيها الإنسان التفكير في حياته وعلاقتها بالطبيعة، هذه الطريقة الغائية، أي أن الإنسان اعتقد أن وراء كل ظاهرة طبيعية غاية معينة تحدث من أجلها الظواهر، وهذا التفكير ليس تفكيراً موضوعياً بقدر ما هو تفكير ذاتي، ويحاول شريتي أن يسأل عن طبيعة الإنسان فيقول:" فما هو الإنسان؟ لعبة بيد مشيئة الإله أو الآلهة، الإنسان آلة لا إرادة لها، وإرادة الإله– فقط وفقط– هي التي تحركها أينما تريد. إذاً هناك نوع من عدم أصالة الإنسان، نوع من تفاهة الإنسان، موجود في الرؤية الدينية للكون"[٦] ويناقش شريعتي الإنسان في السياق الديني فيكشف عن مسألة هامة، وهو أن الإنسان في المنظومة الدينية يعيش مستلباً وعليه أن ينكر عقله وقدراته الذاتية، طالما أن الإنسان يعيش مشدوداً في هذه المنظومة أمام شخصية الإله التي تتمتع بالأصالة، ويذكر شريعتي في هذا الشأن وضع الإنسان فيقول:" الإنسان في الرؤية الدينية للكون، يجب ألا يعتمد أبداً على إرادته ووعيه ومصيره وشخصيته؛ بل عليه نكران ذاته أمام الإرادة الإلهية، نكران ذهنه وعقله أمام العقل الكل؛

[١] - المصدر نفسه، ص١٨.
[٢] - المصدر نفسه، ص١٩.
[٣] - المصدر نفسه، ص١٩.
[٤] - المصدر نفسه، ص٢٠
[٥] - جاكوب، فرانسوا. لعبة الممكنات، ت: أحمد صالح، د.ت، ص٢٥
[٦] - شريعتي، علي. الإنسان والإسلام" ت: عباس الترجمان، دار الأمير، بيروت، ٢٠٠٧، ص٥١.

نكران شخصيته وأصالته أمام شخصية الإله وأصالته، إذاً كما نرى، أن الرؤية الدينية للكون– كما كانت سائدة طوال التاريخ– تؤدي إلى تفاهة الإنسان ونفي ذاته"[١] .

وهذا الاستلاب أدى إلى أن لا يستطيع الإنسان أن يفكر في نفسه بوصفه منفصلاً عن بقية الظواهر الطبيعية، فهو ظاهرة منفعلة في الأشياء والأحداث تماماً كما هو الأمر في ظواهر الطبيعة، وهذا الشكل من التفكير كان شكلاً بدائياً كما نجده لدى التفكير الأسطوري والديني بشكل عام، وحول هذه المسألة يشير أحد الباحثين فيقول:" يبحث عن ال" من" لا عن ال" كيف". وما دام عالم الظواهر هو " أنت" مجابهاً الإنسان، فإن الإنسان القديم لن يتوقع وجود سنة لا شخصية تنظم خطة الطبيعة. إنه يبحث عن إرادة ذات غرض تأتي فعلاً معيناً"[٢]، إلا أن شريعتي يرى أن هناك داخل المنظومة الدينية تناقضاً في رؤية الدين للإنسان، ويرى أن هذه الرؤية جاءت من الماضي الديني فهو يكتب:" من ماضينا التاريخي، الذي هو دين سلبي ضد الإنسانية قد وصل إلينا ونحن إما أن نعتقد به، بحيث نكون دينيين خرافيين منحطين– أقول ذلك بصورة عامة– أو أن نخالفه، بحيث نكون متجددين مخالفين للدين المنحط الذي وصل إلينا من الماضي، لا دينيين"[٣].

ويرى شريعتي أن الخروج من هذه النظرة الدينية الخرافية للإنسان، فإنه لابد من التخلي عن الاعتقاد الأعمى والانطلاق نحو المعرفة الحقيقية التي تهتم بالطاقات الإنسانية فهو يكتب بهذا الشأن فيقول:" إننا محتاجون اليوم إلى معرفة الدين، إلى معرفة العلم، إلى معرفة المجتمع والتاريخ، إلى معرفة شخصياتنا، لا إلى التظاهر بالعقيدة، كل هذه العقيدة عندما لا تكون مقترنة بالوعي، ليس أنها لا فائدة فيها فحسب، بل إنها مضرة، لأنها تأخذ جميع الطاقات الإنسانية"[٤].

وهذا الموقف الذي يتبناه شريعتي يقودنا مباشرة إلى الموقف الفلسفي حول موقع الإنسان في الطبيعة والوجود، حول الجزء الإلهي في الإنسان والجزء الدنيوي، ويذكر ذلك بموقف أفلاطون من الإنسان الذي أخترع أسطورة هبوط الروح إلى البدن، وهي أسطورة التي تقول:" إن الله صنع نفس الإنسان من جوهر نفوس الكواكب الخالدة، غير أنه لما كان لا يليق بالخالد أن يصنع ما هو فان، فقد ترك لنفوس الكواكب أمر صنع الأجزاء الفانية في نفس الإنسان، وهذا ورد في محاورة القبيادس. أما في محاورة فيدون فالأسطورة تقول غير ذلك، فالنفس كانت منذ الأزل تعيش مع الآلهة في العالم العقلي، وفي محاورة فايدوس قال عنها إنها كانت تتبع مواكب الآلهة في دورات معينة، غير أنها، نظراً لفقدانها توازنها، سقطت في أجسام البشر، وما تنفك تسعى بعد ذلك إلى العودة إلى حياتها الأولى"[٥].

ودعوة شريعتي للانتقال من موقف المنظومة الدينية إلى موقف الفكر الفلسفي يلتقي مع موقف المفكرين الذين حاولوا التأكيد على ضرورة اللجوء إلى المذهب الإنسانوي الذي يحترم الإنسان لذاته ولقدراته العقلية والنفسية والبدنية، وهذا الموقف يمثله في الفكر العربي المعاصر المفكر محمد أركون الذي يرى إن الإنسانونية تحترم" الإنسان بحد ذاته ولذاته، ويعتبره مركز الكون ومحور القيم ، ويفرق بذلك بين المركزية الإنسانية

[١] - المصدر نفسه، ص٥١.
[٢] -م. من المؤلفين، "ما قبل الفلسفة"، ت: جبرا ابراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٣، ١٩٨٢، ص٢٨.
[٣] شريعتي، علي. الإنسان والإسلام، ص٥٢.
[٤] - المصدر نفسه، ص٥٣.
[٥] - خليل، حامد. مشكلات فلسفية، منشورات جامعة دمشق، ط٢، ٢٠٠٠، ص٣٥.

والمركزية اللاهوتية، فالثانية سيطرت طيلة العصور الوسطى ولا تزال تسيطر حتى الآن على قطاعات واسعة من المجتمعات العربية الإسلامية"[١].

وبالمناسبة فإن هذا الموقف من النزعة الإنسانونية قد استند فيه المفكرون العرب إلى النزعة الإنسانوية في الفكر الأوروبي، وخصوصاً تلك النزعة التي جعلت من الإنسان محوراً للوجود برمته"[٢]. وكل هذا مهد لموقف شريعتي من الإنسان فلسفياً، وأراد بذلك أن يعالج مشكلة الإنسان بعيداً عن موقف الدين؛ وفي هذا الشأن تحدث شريعتي عن رؤية كونية للإنسان، وهي تتضمن الموقف التاريخي من الإنسان فهو يقول:" إن الرؤية الكونية التي بنيت على المنطق والوعي والهدف الغائي ولا سبيل إلى المصادفة والعبث إليها ، عندما يوضع التاريخ أيضاً في قلب هذا العالم فإنها تحوله إلى واقع حي على الدوام ومنطقي، فهو ليس كما يراه بعض المؤرخين من صنع شهوات الملوك أو إرادة الأبطال أو من وضع شخصيات وليس إلا مجموعة من أحداث المصادفة والأفعال التلقائية، وأنه ليس كما يظن نابليون عبارة عن مجموعة من الأكاذيب التي اتفق عليها الجميع، وليس بتعبير توماس كارليل قدم إلى بطلاً وسوف اكتب تاريخ عصره، بل إن التاريخ مسيرة وحدة متصلة له مبدأ حركة متميزة على أساس قوانين حتمية أو بتعبير القرآن سنن لن تجد لها تحويلاً"[٣].

وعندما يصل شريعتي إلى هذا الفهم التاريخي للإنسان فهو يرى أن الإنسان سابق على الوجود، ويقف موقفاً نقدياً من الفلسفات الوجودية التي رأت أن وجود الإنسان هو وجود سابق على الماهية، أو كما يعبر عن ذلك بقوله:" لقد كان الإنسان موجوداً ولم يسبقه آخر، وأن معنى فلسفة الوجودية هو تقدم الوجود عن الماهية أو الجوهر، ويعود وجود الإنسان في البداية إلى الله، وهذا ما ذهب إليه ياسبرس الألماني وكيركغارد الدانماركي وغيرهم من فلاسفة الوجودية المذهبية أو يقولون بأن وجود الإنسان في البداية يعود إلى الطبيعة وهو ما خلص إليه سارتر ورواد الفلسفة الوجودية الألمانية"[٤]. ولكن شريعتي يرى خلافاً لهذه الفلسفات أن الإنسان يمثل علة أساسية من العلل الإلهية، ولكن ذلك لا يعني أنه يقول بواحدية الوجود بل إن الإنسان قد تشارك مع الله في وجود النوع الإنساني، وهذا الموقف والفهم للمشاركة بين الله والإنسان في الوجود الإنساني يقود شريعتي إلى القول بأن الإنسان هو نتيجة تضافر إرادتين هما: إرادة التاريخ وإرادة الله، ويكتب شريعتي عن الكينونة الإنسانية فيقول:" وإن هذه الكينونة، وهذا الموجود بدون أي شيء، شرع ببناء كيفيته لذاته، واختار ما يريد بنفسه. فاختار وصمم وعمل، وفي هذا التيار اكتسب لنفسه الصفة والماهية وأصبح إنساناً، نوع الإنسان في الأمس واليوم على وجه الأرض، ظهر للوجود بمشاركة الله سبحانه، فإن الله منح المصل الأصلي أو الخميرة الأولية، وأخذ هو بدوره يظهر هذه الخميرة بالشكل الحالي، فإعطاء الماهية أو الجوهر، وكل هذه الصفات التي تؤلف بمجموعها كيفية الإنسان اليوم تحققت بواسطة التاريخ"[٥].

وكل ذلك يدفع بالقول إن مفهوم الإنسان والإنسانية عند شريعتي يخرج من إطار النظريات المثالية والرومانسية، كما يحرر الإنسان من النظرة الميتافيزيقية عندما يرى أن الإنسان يمكن أن يصنع نفسه بنفسه وهو يشير إلى هذه المسألة بالقول:" إن الإنسان بالمعنى الفردي وبالمعنى الجماعي ليس على الدوام وعلى الإطلاق وليد بيئة أو ربيبها، وأقصد بالبيئة، البيئة الطبيعية بمعناها المادي ، والبيئة الجغرافية والاقليمية كما يتحدث عنها الجغرافيون، والبيئة التاريخية كما يفسرها المعتقدون بحركة التاريخ، وأيضاً البيئة الاجتماعية كما يتحدث عنها علماء الاجتماع، والبيئة

[١] - محمد أركون، "نزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيدي"، ت: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٧، ص١٠.
[٢] - بلوخ، أرنست. فلسفة عصر النهضة، ت: الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠، ص١٢.
[٣] - شريعتي، علي. العودة إلى الذات، ت: ابراهيم الدسوقي شتا، مقدمة المترجم، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٦، ص٣٤٢.
[٤] شريعتي، علي. الإنسان والتاريخ، ت: خليل علي، دار الأمير، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧، ص٦٢.
[٥] - المصدر نفسه، ص٢٦.

الطبقية كما يتحدث عنها الماركسيون، كما أن الإنسان ليس مخلوقاً جبرياً خاضعاً للوراثة كما يعتقد علماء الأحياء والوراثة والفاشيون"[١].

ورغم أن شريعتي يعترف بدور هذه العناصر في بناء ذات الإنسان، إلا أنه يرى أن الإنسان يتجاوز هذه النظريات، وهذه العناصر، أي بإمكانه أن يشارك في صناعة ذاته ووجوده طالما أنه مشارك للإله في الوجود، وفي هذا الصدد يذكر شريعتي هذه المسألة فيقول: "إن الإنسان يستطيع أن يكون من صنع نفسه، أي أن يكون شريكاً في بناء ذاته. ولا ينبغي أن يجرنا هذا القول إلى نوع من المثالية، أو على الأخص إلى نوع من الرومانسية الفلسفية والصوفية العاطفية، التي تتحدث عنها دائماً صُناع المدن الفاضلة، أولئك الذين يتصورون أن الإنسان جوهر مجرد ومنفصل عن بيئته الطبيعية والاجتماعية وحركة التاريخ الجبري"[٢].

الاستنتاجات والمقترحات:

انتهى هذا البحث إلى نتائج عدة، يمكن أن نجملها بما يأتي:

١. يرفض شريعتي الأخلاق الناجزة الصادرة عن نصوص لا تاريخية أو خرافية أو دينية.

٢. يؤكد شريعتي أن الأخلاق مرتبطة بوجود الإنسان من حيث إن هذه الأخلاق لابد أن تنبع من النوايا الأخلاقية للإنسان.

٣. يركز شريعتي على مفهوم الواجب الأخلاقي، إذ يصل إلى أن الواجب هو الذي يحتم على الفرد أن يسلك أخلاقياً.

٤. فيما يخص مسألة إنسانية الإنسان فإن شريعتي يرى أن الإنسان يجب أن يكون جذر ذاته، أي أن يصنع إنسانيته بنفسه.

٥. لا تتأسس إنسانية الإنسان في حالة استلابية بين الله والإنسان، وإنما عن طريق التشاركية أي التشاركية بين الإنسان والله.

[١]- شريعتي، علي. بناء الذات الثورية، ، ص١٨.

[٢] - شريعتي، علي. بناء الذات الثورية، مصدر سبق ذكره، ص١٨.

المصادر والمراجع:

١. شريعتي، علي(د.ت). *الأخلاق للشباب والطلاب والناشئة*، ت: موسى قصير، دار الأمير، بيروت، ص١٠٣.

٢. شريعتي، علي(٢٠٠٧). *الإنسان والإسلام*" ت: عباس الترجمان، دار الأمير، بيروت،ص٣٠٩.

٣. شريعتي، علي(٢٠٠٧). *الإنسان والتاريخ*، ت: خليل علي، دار الأمير، بيروت، ط٢،ص١٠٤.

٤. شريعتي، علي(١٩٨٦). *العودة إلى الذات*، ت: ابراهيم الدسوقي شتا، مقدمة المترجم، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١،ص٣٦٧.

٥. شريعتي، علي(٢٠٠٧).*بناء الذات الثورية*، ت: ابراهيم الدسوقي شتا، مقدمة المترجم، دار الأمير، بيروت،ص٩٥.

٦. م. من المؤلفين(١٩٨٢). *ما قبل الفلسفة*، ت: جبرا ابراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٣، ص٣٢٠.

٧. جاكوب، فرانسوا(د.ت). *لعبة الممكنات*، ت: أحمد صالح،ص١٠٣.

٨. خليل، حامد(٢٠٠٠). *مشكلات فلسفية*، منشورات جامعة دمشق، ط٢، ص٣١٧.

٩. أركون، محمد(١٩٩٧). *نزعة الأنسنة في الفكر العربي جيل مسكويه والتوحيدي*، ت: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت،ص٦٦٦.

١٠. بلوخ، أرنست(١٩٨٠). *فلسفة عصر النهضة*، ت: الياس مرقص، دار الحقيقة، بيروت، ص٢٠٠.

Works Cited:

1. Shariatei, Ali (D.T) . *Ethics for Youth , Students and Young People* , trans:Mosa Kasir , Far Al-Amir , Beirut , p.103.

2. Shariatei, Ali (2007). *Man and Islam , trans: Abbas Al-turguman* , Far Al-Amir, Beirut , p309

3. *Shariatei* , Ali (2007), Man and History, trans: Khalil Ali , Dar Al-Amir , Beirut , Second edition , p.104.

4. Shariatei , Ali (1986) . *Return to Self , trans: Ibrahim Al-Dosoqi She*ta , translator's introduction , Al-zahraa for Arabic Media , Cairo , first edition , p.367 .

5. . Shariatei, Ali (2007) . *Self Revolutionary Building , trans: Ibrahim Al-Dosoqi Sheta, translator's introduction*, Dar Al-Amir , Beirut, p.95.

6. A group of editors ,(1982). *Before Philosophy , trans: Gabra Ibrahim Gabra , Arabic Institution for Studies and Publishing* , third edition, p.320.

7 . Jacob , François (D.T). Possibilities' Game , trans: Ahmad Saleh , p. 103.

8. Khalil Hamed (2000) . *Philosophical Problems , Damascus University Publications* , second edition , p.317.

9. Arcon, Muhammad (1997) , *Humanism in Arabic Thought: Maskaweh and Tawhidi's Generation , trans: Hashem Saleh* , Dar Al-saqi , Beirut, p.666.

10. . Bloch , Ernst (1980) . *Philosophy of the Renaissance , trans* : Elias Morqus , Dar Al-Haqiqa , Beirut, p.200.